الروح التائهة

(The Lost Soul)

للكاتب الأمريكي: بن هيكيت

شارفت فيالق الفجر على نشر أشرعة النور على المدينة الحالمة بعدما أوشكت على طرد جحافل الظلام في معركة أزلية يُشهد لها بالانتصار فيها كل يوم، فيما استند إلى قضبان النافذة رجل جافاه النوم فما ذاق له طعماً، وشرع يتأمل عبر تلك النافذة الصغيرة فلول الليل الواهنة وهي تنسحب في هدوء وانكسار تجرّ أذيال وشاح عفّره ألق الفجر وثقبته نجوم الشتاء!.

وكان معه في الزنزانة شخصان جسيمان، أما وجهاهما فكانا منتفخين في إعياء وقد نمت لهما ذقنان شعثاوان بعد أن شغلهما ما كانا فيه من همٍّ عن كل شيء. وطفقا يرمقان جدران الزنزانة في صبر وصمود ثم التفتا إلى الواقف قرب النافذة واسترقا من فوق كتفه نظرة خجلى ألقياها على أولى خيوط الفجر البيضاء... على أن شخصاً رابعاً دخل فجأة عليهم!

وحياه الرجلان بوقار غير مألوف:

ـ مرحباً أيها الطبيب! قال أحدهما فيما تساءل الآخر:

ـ كم الساعة الآن؟

لم يكن باب الزنزانة مقفلاً فدخل الطبيب الذي تناول من جيب صدريته قلماً فضياً وشرع يدحرجه بين إبهامه وبقية أصابع يده، ثم ضيق عينيه حينما وقعتا على مصباح الزنزانة المتوهج العاري أعلى السقف وبدا غايةً في التوتر:

ـ مرحباً! قال.

والتفت إليه الواقف قبالة النافذة.... كان مبتسماً.

ـ كيف أنت الآن؟ قال الطبيب مواصلاً دحرجة قلمه الفضي. وهز الرجل رأسه بأدب ودود... غريب نوعاً:

ـ لم أنم جيداً! ـ أجابه ـ لا أظن القلق يجدي نفعاً... لكن.... حسناً... لقد كنت أتحدث مع هذين الرجلين الكريمين.... أحاديثهما الشيقة أنقذتني من قبضة الوحدة... يا سيدي أنا في مأزق غريب.... فأنا لا أدري من أكون!

وطرف الطبيب بعينه قبل أن يلتفت إلى الرجلين الجسيمين... بديا مبهمين غامضين كثورين، ثم وضع قلمه قبل أن يخرج حقيبةً جلديةً صغيرةً من جيب معطفه، فتحها والتقط منها سماعته.

ـ إجراء روتيني فحسب! ـ تمتم قائلاً ـ فك أزرار قميصك من فضلك!

ووضع السماعة على صدر الرجل وبعد فترة استماع قال:

ـ مدهش ـ حركة القلب طبيعية جدًّا.

وهز الجسيمان رأسيهما بآلية في آن، واحد. هناك دائماً تقليد معين لهزة الرأس وطريقة النظر إلى ذوي المهن يتّبعها عامة الناس احتراماً وتبجيلاً.

ـ لست أدري من أنا! واصل الرجل الواقف بجوار النافذة حديثه بنبرة عالية نوعاً وهو يعيد ربط إزاره: صحتي ممتازة... على أنه ليس لدي أدنى فكرة عمن أكون. وخلف كلماته لاحت ثانية تلك الابتسامة الحائرة المعتذرة.. الخجلى... حتى اسمي لا أعرفه. ليس عندي شك في أن المسؤولين يجتهدون في معرفة من أكون. إلا أن أعصابي لم تعد تحتمل. من حسن حظي أنني أتمتع بروح الدعابة وإلا... حسناً تخيل أنك قد وجدت نفسك مسجوناً فجأة دون سابق إنذار.. ودون أن تعرف من أنت ولا من أين أتيت... لابد وأن أحدهم قد التقطني وأنا أسير على غير هدى... ماعلينا.. لكني... لكني يا سيدي لا أجد مبرراً لوضع رجل في السجن هكذا... كان بإمكانهم إيداعي مكاناً أكثر احتراماً... المستشفى مثلاً أو أي فندق! لابد وأن عائلتي غاية في القلق عليّ الآن! أتدري أيها الطبيب! لقد دخلت في لعبة تخمين وتحدٍّ مع نفسي لاستشراف كنه من قد أكون...لابد مثلاً وأني متعلم مثقف... وأني ما تعودت أن أكون على السجون ضيفاً..

والتفت الطبيب إلى الرجلين فهزا مناكبهما في حيرة وحرج.

وألقى الطبيب على ساعته نظرة عجلى.

ـ كم الساعة الآن.

تسلل صوت أحد الرجلين في خجل.

وأطلق الواقف إزاء النافذة تنهيدة حرّى، ثم تابع كلامه فيما رفع الطبيب بحركة خفية ساعة معصمة إلى الرجلين كيما يستدلان على الوقت بها ففعلا وهزّا رأسيهما في امتنان.

ـ لقد فتشت كل جيوبي. أتى صوته ثانية ـ لكني لم أعثر على ماقد يدل على هويتي. ماوجدت منديلاً أو مفكرة أو ماسواهما! وإني لألقي على يدي نظرة فأعرف أنهما ليستا يدي عامل لا بدّ وأن...

وتوقف عن الحديث ثم شرع في حكِّ مؤخرة رأسه.

ـ ألا تتذكر مجيئك إلى هنا؟ سأله الطبيب محدقاً فيه النظر.

ـ كلا.. ليس بإمكاني القول بأني أتذكر ذلك ـ أجاب ـ إنني أعي تماماً كل ما يحصل لي راهناً.... أما الماضي!! وأغلق المسكين عينيه إثر ذلك فقطب جبينه. وتخلل حديثه ضحكة تهكم وألم قصيرة قبل أن يتابع:

ـ لا أشك أبداً في نزاهة وكفاءة الشرطة... وإلا لكانوا التقطوا لي صوراً لو كنت متهماً ـ كما كنت أقول لهذين السيدين.

ولأمكن لعائلتي... التعرف على مكاني عن طريق ذلك! لابد... وأني شخص مهم جدّاً! قال رامقاً الطبيب بنظرة غضب سريعة. وسحب الطبيب نفساً عميقاً قبل أن يسأله ثانية:

ـ ألا تتذكر؟.

ـ لاشيء... البتة... قاطعه الرجل في توتر ـ واستطرد قائلاً: أستميحك عذراً ـ لم أقصد أن أبدو بهذه الحدة ـ لكن وضعي قد سبب لي كل ذلك.. قد أكون شخصاً مهماً جدّاً بيده مصير واعتماد كثير من الناس.. لابد وأن حالتي الراهة تندرج تحت تسمية اصطلاحية طبية متعارف عليها.. لا أستطيع تذكر مسمى حالتي.. أيها الطبيب.... الأمر غاية في الغرابة!

قال الرجل ذلك ومن بين القضبان طفق يرسل نظرات تائهة حيرى... مطارداً أولى شعاعات الصباح الوضاءة.. رامقاً الأفق بنواظر يتأرجح فيها الأمل والألم واليقين والشك وتابع ـ

ـ لا أدري لِم يبدو الأمر لي مضحكاً أحياناً ـ قال مطلقاً ضحكة قصيرة ساخرة ـ حقيقة الأمر المؤلمة هو أنني قد أضعت روحي.. تاهت وغابت في مهامه المجهول.. أو أنني قد وضعتها في مكان آخر ثم نسيته ـ يبدو ذلك جليّاً ـ لابد وأني أنتمي إلى طائفة الظرفاء. لأن ما أنا فيه يدفعني إلى الضحك.. وشر البليّة مايضحك.. إنني على يقين من أن الآلاف كانوا سيشدّون شعورهم في إحباط وغضب لو أنهم أضاعوا أرواحهم أما أنا فـ.. ولانت ملامحه ثانية قبل أن يبتسم... فتتطور ابتسامته إلى ضحكة قصيرة.

ـ والله «إنه لصباح جميل! قال متمتماً فيما يشبه الذهول وهو يرنو إلى العالم الخارجي عبر قضبان النافذة مجدداً ـ أيها الطبيب ـ قال قبل أن يتجه صوبه فيما كان هو يرمقه بهدوء، والقلم الفضي يروح ويجيء بين إبهامه وبقية أصابع يده.. لما يزل: ـ

ـ لو أنني أستطيع استعادة اسمي ـ أيها الطيب ـ من أنا؟ من...

ـ اسمك هو.. قال الطبيب وما أتم جملته...! توقف بعد أن طرقت سمعه أصوات وقع أقدام عبر الردهة.. ودنت تلك الخطى. ثم ولج الزنزانة فريق من ستة رجال... ووقف الرجلان الجسيمان ثم هزا سيقانهما ـ وازداد قلق الطبيب... توجه إلى المجموعة القادمة وطفق يتبادل معهم حديثاً مقتضباً خافتاً.

ـ لا تقرأوها.. ذلك سيعقد الأمر أكثر أيها المأمور الرجل مصاب بفقدان الذاكرة.. لن تجديه استعادة ذاكرته نفعاً، بل إن ذلك سيزيد في مآسيه. دعوه يمضي على تلك الحال.

ـ حسناً ولكنه سيتكتشف الحقيقة عاجلاً! رد المأمور.

ـ لا أظن ذلك وعلى أي حال فسوف تحكمون وثاقة قبل أن تصل الحقيقة إليه و..

ـ حسناً. قال المأمور داسًّا ورقةً مطوية في جيبه ـ هيا:

ـ إلى الداخل! قال الطبيب لهم. ثم اتجه إلى الرجل الواقف إلى جوار النافذة.. والذي هز رأسه في طيبة وسكون وأمسك الطبيب بيده ثم قاده إلى حيث تقف زمرة القادمين فطوقوه من كل جهة.. وقف اثنان إلى كل جانب واثنان خلفه بينما وقف الرجلان الجسيمان أمامه أما الطبيب فكان لا يزال ممسكاً بيده، محدقاً في وجهه:

ـ المسألة ومافيها. قال الرجل المحاط بسياج بشري في حماس واندفاع كما لو أن دواراً كان يأرجح كلماته:

ـ ليس لدي أدنى علم بمن أكون على أنكم إن تحليتم بالصبر فقد يتعرف أحد أفراد عائلتي عليّ ـ يؤسفني أن أكون مصدر إزعاج لكم. أهذا أحد رجال الدين؟ أين تأخذونني... أرجوكم... لابد وأن أعرف يا إلهي!

ـ لم تكن هناك ثمة إجابة. في صمت.. اقتاد الرجال السيد «جيمس هارتلي» إلى حبل المشنقة. وفي عنبر الموت الطويل الكئيب جلس أكثر من مائة متفرج بانتظار وقائع إعدام ذلك المخلوق المشهور بـ «مقصلة الشيطان» والذي قام قبل أشهر بقتل زوجته وطفليه نياماً!

وولجت الجماعة إلى منصة المشنقة عبر باب مفتوح. وأعقبت ذلك فوضى عمت أرجاء المكان كان مصدرها جمهور النظارة... وأمام تلك الملامح الصاخبة برز فجأة محيّاه المذهول وشرع يرمق الناس في حيرة ووجوم.. فاغراً فاه، كان

كمن يهمُّ بإطلاق صرخة مدوّية... أما عيناه فكانتا زائغتين تدوران بذهول في محجريهما كنجم أضاع الطريق إلى نطاق الجاذبية. وشهق في فزع وحرقة بعد أن أحكم حول عنقه حبل أصفر لامع.

وتقدم رجل فألبسه رداء فضفاضاً فيما تقدم آخر نحوه بقلنسوةٍ بيضاء، وفجأة ندت عن ذلك الوجه الهلع صرخة عظيمة.....

واخترقت أجواء العنبر المثقلة بالدخان ثلاث كلمات كانت مشحونةً بكمٍّ هائل من الحزن والعذاب والنحيب حدًّا وقف معه المأمور متسمِّراً في مكانه! والقلنسوةٍ البيضاء في يده لما تزل.

ـ لست ذلك الشخص.. صرخ الرجل كالمسعور ـ أنا لست هو! ووقف المتفرجون وقد احتبست أنفاسهم محدقين فيه!.

بعد برهة.. كانت ثمة لفافة تدور وتتأرجح. في نهاية حبل أصفر طويل!.

obeikandl.com